

منهم رأيا، ويعنف في النضال دونه، ويتمادي في الخصومة من أجله، ثم يعدل عنه بعد زمن طويل أو قصير، ويرى ضد هذا الرأي، والأمثلة في عصرنا قريبة التناول. مع هذا أرى أن تمسك ابن فارس بالقديم كان في ناحية، ودفاعه عن الجديد كان في ناحية أخرى.

تمسك ابن فارس بالقديم فيما يتعلق بالعقيدة وبيعص العلوم، وإذا كان يفضل العروض على الفلسفة، فذلك لما يظن من خطر الفلسفة على العقيدة، وليس ابن فارس وحده من العلماء هو الذي نعى على أبحاث المناطق في " الأعداد والخطوط والنقط " التي لا يعرف لها فائدة - كما يقول - والسر العميق في نفسه وفي نفوس غيره ممن أنكروها أنها مع قلة فائدها ترق الدين، وتنتج كل ما نعوذ بالله منه.

ودافع ابن فارس عن الجديد حين اتصل الأمر بالأدب، بل على وجه الخصوص بالتأليف في الأدب، فقد بلغه أن ابن سعيد أنكروا على أبي الحسن محمد بن علي العجلي تأليف كتاب في الحماسة، فعجب لذلك، وكتب إليه يحجه، ويقول له: " ومن ذا حطر على المتأخر مضادة المتقدم؟ ولم تأخذ بقول من قال: " ما ترك الأول للآخر شيئا " وتدع قول الآخر: " كم ترك الأول للآخر "؟ وهل الدنيا إلا أزمان، ولكل زمن منها رجال؟ وهل العلوم بعد الأصول المحفوظة إلا خطرات الأفهام ونتائج العقول؟ ومن قصر الآداب على زمان معلوم؟ ووقفها على وقت محدود؟ ولم لا ينظر الآخر مثل ما نظر الأول حتى يؤلف مثل تأليفه، ويجمع مثل جمعه، ويرى في كل ذلك مثل رأيه؟ ولم جاز أن يقال بعد أبي تمام مثل شعره، ولم يجز أن يؤلف مثل تأليفه؟.

والرسالة كلها في هذا الاتجاه، ونحن نعرف تحرج ابن فارس في كل ما يتصل بالعقيدة، أما الآداب، وأما التأليف فيها بخاصة فأمر لا ينبغي حطره على المتأخر، وقد وردت في الرسالة إشارات إلى وجوب الاجتهاد في التأليف، والزيادة على ما كتب المتقدمون " ولو اقتصر الناس على كتب القدماء لصاع علم كثير، ولذهب أدب عزيز، ولضلت أفهام ثاقبة، ولكلت ألسن لسنة، ولما توشى أحد لخطابة،